

تأملات في الثقافة السجالية وكتب الردود

أ.حسين حيدر محبوب علي*[1]

ظاهرة الجدل الفكري، والديني، والمذهبي، من أقدم الظواهر الملازمة للبشر. فما من دين، أو مذهب، أو مدرسة فلسفية، أو تيار سياسي، إلا وخلّف مكتبة واسعة من الردود، والنقوض، والاعتراضات. وقد امتلأت المكتبات الإسلامية، والمسيحية، واليهودية، والفلسفية قديمًا وحديثًا بمثل هذه المؤلفات، حتى ليخيَّل للناظر أن تاريخ الأفكار كان، في جانب كبير منه، تاريخًا من السجال والرد المتبادل.

ولعل النقد الأدبي من أكثر ميادين النقد قابليةً للتقبّل؛ لأن موضوعه عمل إبداعي جزئي، لا منظومة هوية كاملة. أما حين يقترب النقد من العقائد، والانتماءات، والتصورات الكبرى التي يبني الإنسان عليها فهمه لنفسه

---

[1]* باحث في الشريعة والأنثروبولوجيا والفلسفة

والعالم، فإن المقاومة النفسية تشتد، ويتحول النقد من مناقشة عمل إلى منازعة هوية.

ومع ذلك، فإن المتأمل في حركة الفكر يلحظ أن أغلب هذه الكتب لم تستطع القضاء على خصومها، ولم تنجح في إنهاء المذاهب التي وُجّهت إليها. فكثير من تلك المذاهب امتد قرونًا طويلة، وبعضها ما يزال حاضرًا إلى اليوم. وفي المقابل، انتهى أثر عدد كبير من الكتب بانتهاء الظروف التي أوجدتها، بينما بقيت الكتب المؤسسة، والرؤى الكبرى، حاضرة في الذاكرة الإنسانية بعد مئات السنين.

وهذا يدعو إلى تأمل طبيعة هذه الكتب، والوظائف التي تؤديها، والحدود التي تقف عندها.

كهوف المعنى

أكثر ما يضعف الثقافة السجالية انشغالها بإبطال الأفكار وإسقاط الخصوم، مع العجز عن تقديم بدائل عملية ومعرفية قادرة على جمع الناس حوله، فالإنسان من حيث ما هو إنسان لا يطمئن إلى الفراغ، ولا يترك معنى إلا

ليلتمس معنى آخر، ولا يكفيه أن يكتشف خطأ ما كان يعتقده، وإنما يبحث عن رؤية جديدة تستوعب وجوده، وتمنحه الاتساق، والسكينة.

ولهذا قد يدرك المرء وجود تناقضات أو مواطن ضعف في مذهبه أو فكرته، ثم يظل متعلقًا بها، لأن البناء المتصدع يظل أقرب إلى النفس من الوقوف في العراء. وكل جماعة تنظر إلى رؤيتها باعتبارها بيتًا للمعنى وسفينة للنجاة، ولهذا فإن أصحاب الردود لا يرون أنفسهم صانعي فراغ، وإنما يرون أنهم يهدمون بناءً مضطربًا ليقيموا مكانه بناءً أصح وأهدى. غير أن البناء الذي يراه أحد الأطراف مأوى للحق، قد يراه الطرف الآخر معولًا يهدم عالمه الذي ألِفه، لأن الصراع الفكري يجري غالبًا بين تصورات مختلفة للسكن والمعنى، لا بين العراء والعمران.

ولهذا يعجز المتخاصمون عن فهم سبب استمرار مخالفيهم في التمسك بقناعاتهم، لأن كل فريق يتصور أنه يقدم بناءً جديدًا، وفهمًا صحيحًا، بينما يشعر الطرف الآخر أن ما يعرض عليه لا يمنحه الطمأنينة الكافية لمغادرة بيته القديم، وفهمه الأول، مهما كثرت الاعتراضات الموجهة إليه.

ومن أجل ذلك تنحاز العقول غالبًا إلى البديل المتكامل، وتنفر من محض المحو المعرفي والوقوف في العراء؛ فالناس لا يهاجرون من بناء إلى فراغ، وإنما ينتقلون من أفق إلى أفق، ومن حيز إلى حيز.

هذا الذي أبقى على النظريات الكبرى، لأنها قدمت تصورات متماسكة للعالم والإنسان، وأتاحت لأتباعها إطارًا أوسع للفهم والمعنى، بينما بقي كثير من الردود المتفرقة أسير لحظته التاريخية، واكتفى بتعداد أخطاء الخصوم دون أن ينجح دائمًا في التحول إلى رؤية مستقلة قادرة على اجتذاب العقول والقلوب.

عقلية الحرب وعقلية الاستكشاف

وُلدت كثير من كتب الردود في أجواء الانقسام والخصومة، فدخلت إلى ميدان المعرفة بعقلية الغالبة، والانتصار، والإفحام. وعندما يكون الهم الأكبر هو هزيمة الخصم، تتأثر طريقة عرض الأفكار، وتنشأ لغة التشنيع، والتقليل، والسخرية، ويتحول البحث عن الحقيقة إلى ساحة لإظهار التفوق، لا سيما أمام الجماهير المتحمسة.

وفي مثل هذه الأجواء يستيقظ شعور الدفاع عن النفس، فينصرف المخالف إلى اقتناص الثغرات وتتبّع الاعتراضات، ويغيب عنه التأمل الهادئ فيما يقرأ.

ولهذا فإن كثرة الحماس والهجوم لا تعني كثرة التأثير ولا قوة الإقناع، وإنما تكشف في كثير من الأحيان عن ضحالة في العلم وضعف في التقوى.

حين يشبه الخصوم بعضهم بعضًا

من المفارقات المتكررة في السجالات الطويلة أن الإفراط في الاشتغال بالخصم يجعل الإنسان يتأثر به من حيث لا يشعر. فالكاتب الذي يمضي سنوات في ملاحقته، وتتبع كتبه، والرد على أفكاره، قد ينتهي إلى التشرب من لغته، أو مناهجه، أو طريقته في بناء الحجج، حتى يغدو أقرب إليه في الأسلوب ونمط التفكير مما كان يظن، وربما تزعزع يقينه الأول مع طول المخالطة الفكرية.

ولهذا كثيرًا ما يبدو الخصوم الكبار متشابهين في طباعهم وأساليبهم، مع شدة العداوة بينهم. فكأن كل طرف صار مرآة للطرف الآخر، وقد تنتهي المعركة التي بدأت دفاعًا عن الهوية إلى نوع من التماهي غير المقصود، حتى يصير الخصمان أسيرين للموضوع الذي أرادا القضاء عليه.

ومن أجل ذلك كان الاشتغال بالحقيقة أوسع أفقًا من الاشتغال الدائم بالخصوم، لأن الإفراط في ملاحقة المخالف قد يجعل الإنسان يدور في فلكه، ويعيش داخل عالمه، ويمنحه من الحضور في نفسه أكثر مما يستحق.

ومن غرائب السجال أن بعض المعارك التي بدأت دفاعًا عن الهوية تنتهي إلى إنتاج صورتين متقابلتين لبنية واحدة، حتى يكاد الخصمان يتشابهان أكثر مما يتصوران، ويصبح كل واحد منهما جزءًا من عالم الآخر أكثر مما أراد لنفسه.

صورة الخصم التي لا تشبه الخصم

ومن المشكلات المتكررة في كتب الردود أنها تعرض الخصم في صورة مبتسرة أو مشوهة؛ فتنتقي أضعف الأقوال، أو تركز على النماذج المتطرفة، أو تصوغ الفكرة على وجه لا يرضى عنه أصحابها، أو تقع في مغالطات الرجل القشّي.

وعندئذ يشعر المخالف أن الكاتب لم يفهمه، أو أنه يناقش شخصًا آخر، أو يتعمد التشويش والشغب عليه، فتضعف ثقته بالكتاب من أساسه. ومن شروط النقد الرصين أن يتمكن المخالف من القول: لقد عرض هذا الكاتب فكرتي كما أفهمها أنا، ثم خالفني في نتائجها.

الأفكار جزء من هوية الإنسان

يتعامل بعض المؤلفين مع الإنسان كما لو كان آلة منطقية تتغير بمجرد وصول البرهان إليها، بينما تكشف التجربة الإنسانية أن الأفكار ترتبط بالهوية، والذكريات، والانتماء، والعلاقات، والشعور بالمعنى.

ولهذا قد يفهم الإنسان الهجوم على مذهبه أو فكرته على أنه هجوم على ذاته، وتاريخه، ومجتمعه. وعندئذ تتحول المعركة الفكرية إلى معركة نفسية، ويكون الدفاع عن الفكرة دفاعًا عن الكرامة والانتماء.

ومن أجل ذلك فإن الردود المشحونة بلغة التشنيع تدفع كثيرًا من الناس إلى مزيد من التمترس خلف قناعاتهم، لأن المذاهب ليست مجموعة من القضايا النظرية المجردة، وإنما عوالم يعيش الناس داخلها.

حين يكتب الإنسان ليطمئن نفسه

ولا تقف الوظيفة النفسية للردود عند المتلقي، بل تمتد إلى الكاتب نفسه. فالإنسان حين يواجه فكرة تهدد ما استقر في نفسه، قد يشعر بقلق عميق وتنافر داخلي، فيجد في الكتابة وسيلة لاستعادة توازنه وطمأنينته.

ولهذا قد تكون بعض الردود محاولة لإقناع الذات. وكلما اشتدت حدة الخطاب، وكثرت عبارات التشهير والتجريح، دل ذلك على أن المعركة تجاوزت حدود البحث الفكري، ودخلت منطقة الخوف، والقلق، والدفاع عن الهوية.

كتب الردود تخاطب الداخل أكثر من الخارج

تؤدي كتب الردود وظائف اجتماعية مهمة؛ فهي تحمي الجماعة من الأفكار التي تراها -وفق منظورها- مهددة لهويتها، وتعزز شعور الانتماء، وتقوي التماسك الداخلي، وتحفظ ذاكرة الخلافات ومسارات تشكلها وتطورها. ومن هذه الزاوية تبدو كثير من كتب الردود أقرب إلى أدوات التعبئة والحماية منها إلى وسائل التوسع المعرفي. ولهذا يصفق لها الموافقون، بينما يظل أثرها في المخالف محدودًا.

ثقافة الحماية وثقافة البناء

تؤدي كتب الردود وظيفةً مناعية، بينما تنهض المشاريع الفكرية الواسعة بالبناء. والجسد يحتاج إلى المناعة كحاجته إلى الغذاء؛ فالأولى تحفظ الكيان من الانهيار، والثاني يمنح الحياة قدرة التوسع والتجدد.

وعليه فإن كتب السجال أدوات دفاع وصيانة لحفظ التماسك الداخلي، في حين أن المشاريع الكبرى محاولات لتوسيع الأفق، وصياغة تصورات جديدة للعالم والإنسان والمعرفة، تمنح العقل قدرة تفسيرية أعلى، وتدفع الحضارة نحو الإبداع.

ومع ذلك، تظل للحظات الهدم ميزتها التنبيهية والتحريرية؛ فالصدمة الفكرية والقلق المعرفي يوقظان العقل من طمأنينة المسلمات الموروثة، ويدفعانه إلى المراجعة. ولعلك تجد التحولات الكبرى مشروطةً دائمًا بهزات عنيفة تخرج العقول من سكونها، غير أن قيمة الصدمة مشروطة بقدرتها على فتح أفق جديد. حينئذ تبرز ضرورة النقد؛ فالأمم التي تفقد حاستها النقدية تصبح أكثر عرضة للجمود والتهافت.

ولأجل هذا، ارتبط ازدهار الأمم بقدرتها على المزاوجة بين الحماية والبناء، والنقد الفكري والإبداع، وحفظ الموجود والسعي إلى المفقود؛ فالإنسان يزدهر حقًّا حين تجتمع فيه قوة الكشف وقوة التأسيس.

البنية التحتية للسجال

كتب الردود عبر التاريخ ما كانت ظاهرة فكرية خالصة، فقد ارتبطت غالبًا بصراعات النفوذ، والمكانة، والموارد، والسلطة. فالتنافس على القرب من البلاط، أو على المناصب، والأوقاف، والمؤسسات، أو على الشرعية الاجتماعية، كان حاضرًا في كثير من السجالات القديمة والحديثة.

ولهذا أدت بعض الردود وظائف تتجاوز البحث عن الحقيقة أو إقناع المخالف، فكانت وسيلة لإظهار الولاء، أو تثبيت المكانة، أو إقصاء المنافسين، أو حماية المصالح المرتبطة بالجماعات والمؤسسات.

ومن أجل ذلك حققت بعض السجالات نجاحًا سياسيًا واجتماعيًا في زمانها، ثم ذبل أثرها المعرفي مع تغير الظروف وموازين القوى، لأن الذي منحها القوة لم يكن العمق الفكري وحده، وإنما ما أحاط بها من عوامل السلطة والنفوذ.

غياب صورة القارئ المستهدف

كثيرًا ما تُكتب الردود بلغة بيئة المؤلف؛ بمصطلحاتها، ومسلّماتها، وطرائق استدلالها، حتى ليبدو وكأن الكاتب يفترض في خصمه أن يرى العالم من زاوية الرؤية نفسها التي له، وأن يمنح الأدلة والمفاهيم القيمة ذاتها.

ومن ثمّ، تجده يحتجّ بما يراه حاسمًا، ويعتمد مقدمات يظنها بديهية، مستندًا إلى رموز ومراجع تمنحه الطمأنينة والثقة، في حين أنها لا تزن شيئًا في وعي الطرف الآخر. عندئذٍ، تنشأ فجوة خفية بين الكاتب وقارئه المفترض، لتهوي ببعض كتب الردود إلى نوع من المناجاة الداخلية؛ يصفق لها أبناء البيئة الواحدة لأنها تؤكد ما استقر في نفوسهم، بينما لا يبلغ المخالف عتبة الفهم المشترك؛ لأن الخطاب لم يوضع على مقاس بنيته النفسية والمعرفية، ولم يحاول رؤية العالم بعينيه قبل مناقشته.

إن فهم الخصم مقدمٌ على نقده، وتفكيك الطريق الذي قاده إلى قناعاته أسبق من إدانة النتائج؛ فالإنسان لا يتلقى الحجج مجردةً عن عالمه النفسي والثقافي، وإنما يستقبلها من داخل شبكة واسعة من الانتماءات، والخبرات، والذكريات، والتصورات التي تشكل رؤيته الخاصة للأشياء.

ومن أجل ذلك، فإن النقد الذي يتجاهل البنية النفسية والمعرفية لمتلقيه، ينتهي غالبًا إلى مخاطبة من يوافقون عليه لا من كُتب من أجلهم؛ لترتدّ محاولة الإقناع

إلى حديث داخلي يدور داخل الدائرة نفسها، وتبقى المسافة على حالها بين المتحاورين.

المصادرات التي لا يشارك فيها الخصم

الأرضية المشتركة من أهم شروط الحوار المثمر، فكثيرًا ما يحتج الكاتب على خصمه بمقدمات لا يؤمن بها ذلك الخصم أصلًا، فيستدل عليه بنصوص لا يعترف بحجيتها، أو بمسلمات لا يقر بها، أو بلغة خاصة بدائرته الفكرية. عندئذ يتحول الكاتب في حديثه إلى حديث داخلي بين أبناء المدرسة الواحدة، ويصير تأثيره في المخالف ضعيفًا.

ولعل المفارقة أن الخطاب الظاهر لكثير من هذه الكتب يتجه نحو الخصم، بينما تتجه بنيتها العميقة نحو أبناء الجماعة نفسها. فهي تخاطب الآخر في ظاهرها، وتخاطب الأنا الجمعية في باطنها، لتشحذ المعنويات، وتُعزز التماسك، وإعادة تأكيد الحدود النفسية والرمزية للجماعة. ولهذا كثيرًا ما تكون وظيفتها التعبوية أوضح وأسبق من وظيفتها الإقناعية.

صناعة القطيعة وتفكيك المشتركات

يتجاوز الأمر أحيانًا مجرد غياب الأرضية المشتركة إلى محاولة إضعافها أو إزالتها، فكأن بعض المتناظرين يخشى وجود مساحة يلتقي فيها الطرفان، ويرى في كل نقطة اتفاق خطرًا يهدد تماسك جماعته أو يفتح الباب أمام محاولات التقريب.

ومن أجل ذلك يمتد النزاع إلى المناهج، والمصطلحات، والمصادر، وقواعد الاستدلال، حتى يصل أحيانًا إلى نزع الأهلية عن الطرف الآخر. وعندئذ يتحول الخلاف إلى انفصال بين عالمين، لكل عالم لغته، ورموزه، ومصادره.

وتصير المحافظة على المسافة غاية قائمة بذاتها، كما يكون تكريس المباينة قيمة مطلوبة، ويحل الخوف من التقارب محل الرغبة في الفهم.

صراع الرموز المتصنمة

ومن المشكلات التي تعوق كثيرًا من السجالات أن أطرافها لا يختلفون في النتائج وحدها، وإنما يختلفون أحيانًا في الرموز المرجعية نفسها. فكل جماعة تمتلك رموزها الفكرية والتاريخية التي تستمد منها الثقة واليقين، وتتعامل معها بوصفها مفاتيح للفهم ومصادر للمعنى. وعندما يحتكم الكاتب إلى هذه

الرموز، يظن أنه يحتج بحجج قاطعة، بينما لا يرى المخالف فيها المرجعية ذاتها، وقد يحتكم إلى رموز أخرى لا تقل رسوخًا في وعيه.

وعندئذ يتحول السجال إلى حوار بين عوالم رمزية متوازية؛ كل طرف يخاطب الآخر من داخل منظومته الخاصة، ويطالبه بالتسليم لمرجعيات لا يشاركها الإيمان بها. وكلما ازداد التصاق الإنسان برموزه، وقلَّ وعيه بأنها رموز تشير إلى معانٍ أوسع منها، صَعُبَ التفاهم، واشتدت الخصومة. ولهذا لا يكفي نقد النتائج وحدها، بل يحتاج الحوار الناضج إلى وعيٍ بالرموز الحاكمة للطرفين، وفهمٍ للمسافة التي تفصل بين عوالمهما المرجعية قبل الشروع في مناقشة التفاصيل.

الانحياز التأكيدي

يميل الإنسان بطبيعته إلى استقبال ما يوافق قناعاته السابقة، لأن الأفكار لا تدخل إلى العقل في فراغ، وإنما تمر عبر شبكة من الميول، والانتماءات، والخبرات المتراكمة.

ولهذا يقرأ الموافق كثيرًا من كتب الردود بوصفها انتصارًا لما يؤمن به، ويقرؤها المخالف مترقبًا لمواطن الضعف والثغرات، بينما قد ينصرف الباحث الأقل انخراطًا في الخصومة عن مواصلة القراءة إذا وجد الخطاب مشحونًا بالتوتر أو التشنيع.

ومن أجل ذلك تؤدي هذه الكتب في أحيان كثيرة إلى تثبيت القناعات القائمة أكثر من إحداث التحولات الفكرية الكبرى، لأن كل طرف يدخل إليها من داخل عالمه الخاص، ثم يخرج منها أكثر التصاقًا بما كان يؤمن به من قبل.

الخصم الذي حفظ خصمه

ومن مفارقات التاريخ أن بعض كتب الردود أدت وظيفة لم يقصدها أصحابها، فقد حفظت كثيرًا من نصوص الخصوم، ونقلت آراءهم، وساهمت في إبقائها حية في الذاكرة، ولولا بعض الردود لضاعت أقوال ومدارس كاملة، ولما وصلت إلينا شذرات كثيرة من التراث الفكري القديم. وهكذا يتحول الخصم، من حيث لا يشعر، إلى حافظ لتراث خصمه، ويصبح الكتاب الذي أريد به الإبطال وسيلة غير مقصودة لحفظ ما أريد إزالته.

ومن غرائب التاريخ أن بعض القراء تعرفوا إلى أفكار معينة عن طريق الكتب التي وضعت للرد عليها، فتحولت كتب النقض، إلى جسور معرفية غير مقصودة، وحملت إلى الأجيال اللاحقة نصوصًا وآراء ربما تعرضت للضياع أو النسيان. وكأن الخصوم أسهموا في حفظ ما أرادوا محوه، وأطالوا عمر ما سعوا إلى إبطاله.

المعارك التي مات أصحابها

الأفكار لا تعيش في حالة سكون، وإنما تتغير مع تغير الأزمنة، والبيئات، والظروف الاجتماعية والثقافية. فالمذاهب والمدارس الفكرية تعيد قراءة نفسها باستمرار، وتتبدل أولوياتها، وتتطور لغتها، وتظهر داخلها اتجاهات وتفسيرات جديدة.

ولهذا كثيرًا ما نجد بعض كتب الردود تناقش صورًا تجاوزها الزمن، أو تحاكم الخصوم إلى نصوص قديمة، أو تستحضر لحظات تاريخية فقدت مركزيتها عند الأتباع المعاصرين. وعندئذ يبدو السجال وكأنه يدور مع أشخاص غابوا، أو مع معارك مات أصحابها، بينما تحركت الحياة إلى مواضع أخرى.

ومن أجل ذلك قد تتحول بعض الكتب، مع مرور الزمن، إلى وثائق تاريخية تكشف طبيعة الصراعات التي عرفها عصرها، أكثر من كونها أدوات فعالة لفهم الواقع الحاضر. فالخصم الذي يناقشه الكاتب قد يكون قد تغير، أو أعاد تعريف نفسه، أو انتقل إلى أسئلة جديدة لم تكن مطروحة يوم كُتب الرد.

ولهذا تظل الأفكار الحية أكثر سيولة وتعقيدًا من الصور الجامدة التي ترسمها عنها المعارك القديمة، ويظل فهم التحولات التي تطرأ عليها شرطًا ضروريًا لأي نقد يريد أن يخاطب الواقع بدل أن يبقى أسير ذاكرة الصراعات الماضية.

القدرة التفسيرية أعلى من القدرة الهجومية

يكشف تاريخ الفكر عن قانون متكرر؛ فالأفكار تميل إلى التراجع عندما تظهر تصورات تمتلك قدرة تفسيرية أعلى. فالفيزياء الأرسطية تراجعت أمام الفيزياء الحديثة، والنظريات الجديدة وسعت أفق الفهم، وقدمت تفسيرات أعمق، واستوعبت إشكالات أعقد. والناس ينجذبون في نهاية المطاف إلى الرؤية التي تمنحهم قدرة أكبر على فهم العالم، وتوفر لهم قدرًا أعلى من الاتساق الداخلي.

ومن أجل ذلك فإن كثيرًا من التصورات لا تتراجع بسبب قِدَمها، وإنما بسبب عجزها عن تفسير ما يستجد من الوقائع والإشكالات. أما التصورات التي تحتفظ بقدرتها على الإيضاح والفهم، فقد تبقى حية قرونًا طويلة، لأن معيار البقاء في عالم الأفكار ليس العمر الزمني، وإنما الحيوية التفسيرية والقدرة على الإقناع.

حين يتحول الرد إلى بناء

شهد تاريخ الفكر نماذج تجاوزت الوظيفة الدفاعية، فتحولت الردود نفسها إلى مشاريع تأسيسية كبرى. فالنقد الرصين يمتلك قدرة على إعادة صياغة الأسئلة، وإعادة ترتيب المشهد، وفتح آفاق جديدة للفهم. وعندئذ تتجاوز الكتابة حدود السجال المباشر، وتدخل مجال الإبداع الفكري.

وتبلغ الردود أعلى درجات نضجها حين تتجاوز الانشغال بالإجابات إلى مراجعة الأسئلة نفسها، لأن الخلافات العميقة لا تنشأ دائمًا من تباين الأجوبة، وإنما من اختلاف طرق صياغة الإشكالات وتحديد مواطن البحث. وهو ما صرف كبار المفكرين إلى اختبار الأفكار من جذورها، وسعوا إلى بناء صياغات

أعمق للمسائل التي ورثوها. وعندما يعاد تعريف السؤال، يبني الخصوم جسرًا فوق هوة الخلاف، حتى مع استمرار التباين في النتائج. وهذا اللون من النقد هو الأقرب إلى الخلود، لأنه يمنح الفكر أدوات جديدة للنظر والتأمل.

ومن أجل ذلك شهد تاريخ المعرفة ردودًا تجاوزت حدود الثقافة السجالية المغلقة، وتحولت إلى علامات بارزة أعادت رسم خرائط الفلسفة، والعلم، والأدب. فما بقي من تلك الأعمال لم يكن حرارة الخصومة التي صاحبتها، وإنما قدرتها على توسيع أفق الفهم، وإضافة أسئلة جديدة، وفتح مسارات لم تكن مطروقة من قبل.

ومن ثم لا تتحدد قيمة الرد بكونه معارضة لفكرة سابقة، وإنما بقدرته على التحول من مجرد اعتراض إلى مناسبة لإعادة البناء، ومن الانشغال بإبطال الخصم إلى السعي نحو رؤية أوسع وأعمق للعالم والإنسان.

التحولات الكبرى وولادة الأطر الجديدة

تكشف تجربة البشرية الطويلة أن التحولات الفكرية الكبرى ارتبطت بأولئك الذين انشغلوا بتوسيع أفق الرؤية، لا بملاحقة الخصوم؛ فالأفكار التي غيّرت

وجه العالم لم تكتسب قوتها من ضراوة هجومها، وإنما من قدرتها على تقديم فهم أعمق للإنسان والوجود.

ومِن ثمّ، فإن الذين صنعوا المنعطفات الكبرى في تاريخ المعرفة لم يقضوا أعمارهم في تحطيم الأطر المعرفية للآخرين، وإنما قدّموا للبشرية نماذج تفسيرية جديدة يقرؤون بها أنفسهم بوعي أوسع وأغنى. ومن طبيعة هذه الآفاق الجديدة أن تكشف عجز التصورات القديمة وقصورها عن تفسير العالم، فتذبل الأخيرة تدريجيًّا، وتفسح المجال لرؤى أكثر رحابة واتساقًا.

ولذلك، لا تكمن المشكلة في فعل النقد ذاته، وإنما في المفارقة بين الهدم العقيم والهدم الخلاق؛ فهناك من يهدم ليخلّف وراءه فراغًا، وهناك من ينقد ليعيد ترتيب المشهد، ويؤسس لوعي أرحب وأعلى قدرة على التفسير.

ومن أجل ذلك، خُلِّدت بعض الردود بأسماء كبار المفكرين والفلاسفة؛ لأنهم تجاوزوا مضايق السجال المباشر، وحوّلوا النقد إلى مناسبة للتأسيس، وجعلوا من الاعتراض وسيلة لفتح آفاق غير مطروقة أمام الفكر الإنساني.

الكتب التي تبقى

الكتب التي بقيت في ذاكرة البشرية كانت في الغالب تلك التي وسعت أفق الرؤية، وأضافت أدوات جديدة للفهم، وقدمت تفسيرًا أعمق للإنسان والعالم. وقد ارتبطت بعض كتب الردود بظروفها التاريخية، ثم انتهى أثرها بانتهاء تلك الظروف، بينما استمرت الكتب المؤسسة لأنها تجاوزت لحظتها الخاصة، وخاطبت أسئلة الإنسان الكبرى.

الإنسان الذي لم يولد بعد

وقد لا يكتب بعض أصحاب الردود للخصم وحده، ولا للجماعة التي ينتمي إليها، وإنما يكتبون أيضًا لقارئ لم يولد بعد، وقارئ ستنطفئ في زمنه حرارة الخصومات التي أشعلت تلك السجالات. وعندئذ تتغير وظيفة الكتاب، ويتحول من سلاح في معركة إلى وثيقة تكشف للأجيال اللاحقة كيف كان البشر يفكرون حين يختلفون، وكيف كانوا يفهمون الحقيقة، ويدافعون عن معتقداتهم، ويرسمون حدود هوياتهم.

ولهذا بقيت بعض الكتب السجالية حية بعد زوال أسبابها المباشرة، لأن قيمتها لم تعد كامنة في الانتصار الذي تحققه، وإنما في الصورة الإنسانية التي حفظتها.

وعندئذ تتحول المكتبة السجالية من ساحة صراع إلى سجل لذاكرة الإنسان، ومن ميدان للمغالبة إلى متحف كبير لحركة الروح البشرية عبر العصور.

ومجمل القول إن النقد ضرورة، وكشف الأخطاء ضرورة، والدفاع عن القناعات أمر مفهوم، غير أن التجربة الطويلة للبشرية تكشف أن قوة الفكرة تنبع من قدرتها على بناء رؤية أوسع، وتقديم تفسير أعمق، ومنح الإنسان معنى أكثر اتساعًا. ولهذا فإن التحولات الفكرية الكبرى ارتبطت بأولئك الذين أضافوا إلى البشرية طرائق جديدة للفهم، وقدموا عدسات أوسع للنظر إلى العالم والإنسان.

ولعل هذا هو الناموس الذي يتكرر في تاريخ الأفكار كله؛ فالأفكار التي تعيش على أخطاء غيرها قد تنجح في الهدم، بينما تمتلك الأفكار التي تمنح الإنسان معنى أوسع، ورؤية أعمق، وقدرة تفسيرية أعلى، قابلية أكبر للبقاء والانتشار والاستمرار.

وتبقى كتب الردود أداة مهمة للكشف والحماية، بينما تتشكل التحولات الكبرى حين تلتقي قوة النقد بقوة البناء، وحين يتحول البحث عن الانتصار

إلى بحث عن الحقيقة، ويتحول السجال من حراسة المسافات إلى توسيع آفاق الفهم الإنساني.

❋❋❋

❋❋

❋